فى الأدب العربى

القصـــة المصرية

الأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربى فى مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

- ٢ -

أول قصة مصرية بالمعنى الحقيقى خرجت إلى الوجود ، وهى غفلاء من اسم مؤلفها ، فلم تلق أول الأمر الا اهتماما قليلا من جانب المتعلمين ، تلك القصة هى « زينب » مناظر وأخلاق ريفية ، بقلم مصرى فلاح — القاهرة مطبعة الجريدة عام ١٩١٤ . ومؤلفها هو الدكتور محمد حسين هيكل ، ولما كان غداة نشرها محاميا صغير السن طموحا لم يشأ أن يذكر اسمه مخافة أن يقف ذلك عقبة فى سبيل عمله .

خرجت « زينب » خروجا تاما ، فى لغتها وأسلوبها وموضوعها وفى الطريقة التى عالجها بها المؤلف عن جميع ما تقدمها من الآثار فى الأدب العربى . وليس هناك علاقة ما بينها وبين قصص زيدان التاريخية ، ولا قصص فرح أنطون الفلسفية ، فلقد كتبت كما يتضح من عنوانها لتصوير الحياة الاجتماعية فى الريف بسلسلة من الحوادث تدور حول حياة فتاة قروية .

ونستطيع أن نسرد الحكاية فى إيجاز ، فنقول — ان زينب وهى فتاة قروية جميلة ، قوية الاحساس ، بعد علاقة بريئة بشاب متعلم يدعى حامد ابن صاحب الأرض فى القرية — قد أحبت فتى يقال له ابراهيم . ولكنها تزوجت على رغم أنفها وبمشيئة والديها من صاحبه حسن . فحرصت على وفائها وولائها له ، ولكنها ظلت على حبها لابراهيم ، ولقد أدى التنازع بين هاتين العاطفتين ، عاطفة الحب وعاطفة الاخلاص الزوجى إلى تأثير سيء فى صحتها ، ولما علمت بدخول ابراهيم فى الجيش بلغ ذلك من نفسها مبلغاً عظيما حتى أضناها الحزن ثم أودى بحياتها ، وبجانب هذه الخطة تقوم حكاية أخرى . وهى تلك العلاقة بين حامد وابنة عمه ، وهى فتاة من فتيات المدن ، ثم اختفاؤه عندما أخفق مسعاه فى التزوج منها .

ويتضح من ذلك أن الخطة على العموم أقل من أن تكفى لملء أربعمائة صفحة ، وبالقصة من جهة أخرى عيوب سنعرض لها الآن . وينبغى أن نتذكر أن تلك القصة ليست أول مجهود لشاب صغير السن فحسب . بل هى كذلك أول مجهود من نوعه فى أدب فنى ، فيجب أن ينظر اليها مع هـــذا الاعتبار . والواقع أن مافى القصة من تفاصيل تستوجب النقد ، يقل شأنه ، إذا قارناه بتلك الحقيقة وهى أن هناك مجهودا بذل ، وأن تلك القصة تعتبر شيئاً جديداً من نوعه أضيف الى الأدب العربى .

ويعد بناء هذه القصة ممتعا من الناحيتين الوصفية «والسيكلوجية» وواضح أن القصة ، انما قصد بها انتقاد تلك الروح الرجعية التى ما زالت تسيطر على طبقة خاصة من الناس على الرغم من التقدم الحديث ، على أن نجاحها فى هـــذا السبيل لم يكن تاما ، إذ أن الشخصيات نفسها لم تركب بدرجة كافية ، اللهم إلا شخصية حامد ، وهى بلا شك تمثل الى حد كبير شخصية المؤلف نفسه . كذلك نلاحظ أن تصوير الأشخاص والحوادث بطريقة « درامية » جاء ضعيفا فى الجملة .

وكانت النتيجة أن تعليقات المؤلف « السيكلوجية » كانت تأتى على لسانه هو بطريقة أقرب الى طريقة الكتب المدرسية مع استعمال ضمير المتكلمين الجمع . ويظهر تدخل المؤلف بشكل أوضح فى مواضع الوصف . ولقد ذكر هيكل بك فى مقدمة الطبعة الثانية الظروف التى وضع فيها كتابه ، وذلك حين كان يطلب العلم فى "باريس وجذبه الحنين الى وطنه ، فجعل يتمثل فى ذهنه جميع مظاهر الحياة القروية ، ومجالى الطبيعة فى مصر ، ويظهر أثر ذلك فى كل صفحة من صفحات الكتاب تقريبا ، فى قطع وصفية مسهبة للمناظر الطبيعية ، كالشمس والقمر والنجوم والمحاصيل والجداول والبرك . . . الخ ، ولقد يرتفع أسلوبه فى ذلك الى درجة عظيمة من الفخامة والروعة الموسيقية ، ولكن طول الوصف

مما يسبب السآمة وتشتيت الذهن . ففى كل حادثة وفى كل منظر وصف وتعليق ، مما جعل القصة فى بعض المواضع تسير متعثرة . أضف الى هذا أن الكاتب كان يعمد أحيانا الى قصص استطرادية تافهة ، لاتمت بصلة قوية الى القصة الأصلية ، لا لغرض سوى أن يستطيع بواسطتها أن يضيف بعض الفقرات الوصفية ، ثم بين الفينة والفينة تظهر بعض جمل مثقلة بالوصف الى درجة تفقد معها مبناها ومادتها .

ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الفقرات الوصفية تحمل من المعانى الى ذهن القارىء المصرى أكثر مما تحمل الى غيره ، وان تأثيرها الفنى فى نفسه ، يعد أحد الأسباب الرئيسية التى قامت عليها شهرة هذه القصة عند المصريين .

أما ما حوته من المباحث الاجتماعية ، فكان أكثر تمشيا مع الخطة ، اذ كان من المحتم أن يتلمس المؤلف أسباب المساوىء التى ذكرها وأسباب المأساة النهائية ، وأن يرجع ذلك الى أصله فى العادات الاجتماعية . ويغلب على القصة من أولها الى آخرها التعرض لنقد المساوىء التى أنتجها التمسك بالعادات البالية ، ولكن النقد الاجتماعى لم يحشر بالطريقة التى حشرت بها الفقرات الوصفية « والسيكلوجية » ويرجع ذلك الى أن المؤلف قد أجراه على لسان حامد ، وهو شاب متعلم متأثر بأفكار قاسم أمين وغيره من المصلحين الاجتماعيين ، على أن المؤلف كان يلجأ هنا أيضا فى بعض الأحيان الى اصطلاحات الكتب المدرسية .

وكان تنظيم الأسرة وتحرير المرأة هما المحور الذى تدور عليه انتقادات المؤلف الاجتماعية ، أضف الى ذلك بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر ، كبعض الحرف البعيدة كل البعد عن حقائق الحياة ، مثل حرفة طبيب القرية (الحكيم البلدى) ومشايخ الطرق الذين يتجرون بتضليل العامة وغير ذلك .

أما شعور المؤلف القومى ، فكان مضمراً أكثر منه صريحا وان كان قد أظهره فى بعض المواضيع ، وبخاصة عند اشارته الى حقارة الخدمة العسكرية ، تحت سيطرة الأجنبى .

أما أسلوب القصة فقد سار الكاتب فيه على الأسلوب الأدبى الحديث مع تهذيبه فى أغلب الأحيان فى اللفظ والتركيب ، ويلاحظ فيه من جهة أثر الاصطلاحات العامية الخاصة بدلتا مصر . ويتضح ذلك فى اقتضاب بعض الجمل ، وفى طريقة الانتقال وغيرها ، كما يلاحظ فيه من جهة أخرى أثر الفرنسية ، ويظهر ذلك فى طول الجمل والتوائها مع كثرة الجمل الفرعية والمعترضة التى تدخل على الجملة الرئيسية ، مثال ذلك الجملة التى تبتدىء بالفقرة الآتية «ومن الظلام روافه» صفحة ٣٧ من الطبعة الأولى و ٣٤ فى الطبعة الثانية وكذلك الجملة التى تبتدىء بقوله : ولم تكن الا لحظات . . . ص ٨٩ فى الطبعة الأولى و ٧٠ فى الثانية .

أما ما يتعلق بتلك المشكلة الصعبة ، مشكلة أسلوب الحوار فقد لجأ هيكل بك فى شجاعة الى استعمال اللغة العامية اذا كان الحوار بين الفلاحين ، اما اذا كان بين الطبقات المتعلمة فيتركهم يتكلمون اللغة الفصحى .

ويتضح مما قدمنا أن عنصر الخيال فى زينب أقل منه فى مثيلاتها من القصص الأوربية المتوسطة ، وأن ما فى القصة من فقرات عقلية ووجدانية — وهى فى الواقع العنصر الشخصى فيها — يسمو على الناحية القصصية . ولقد ذكر الكاتب فى مقدمة الطبعة الثانية أن القصة فضلا عن مظاهرها الخاصة تأثرت أيضا بطريقة القصة الفرنسية السيكلوجية الحديثة ، ولكنا على الرغم من ذلك — الا اذا ثبت تماما أن القصة قد جرت فى تفاصيلها وأسلوبها وخطتها على نمط القصة الفرنسية — نقول أنه يستحيل علينا أن ننكر على زينب أنها أول قصة مصرية كتبت بقلم مصرى للقراء المصريين ، وأن شخصياتها وأوضاعها وخطتها قد اشتقت من الحياة المصرية الحاضرة .

لم تلق هذه القصة الا اهتماما قليلا حينما نشرت فى عام ١٩١٤ ، ولكنها لاقت بعد ذلك نجاحا كبيرا لما اتسعت دائرة القراء . وكان اعادة طبعها فى عام ١٩٢٩ بناء على طلب الجمهور ، وقد أدى الى ذلك عدة عوامل نذكر منها أنها زادت فى احساس الناس بقوميتهم ، وأن مؤلفها قد ارتفع صيته فى عالم الأدب ، وأنها اختيرت موضوعا لأول « فلم سينمائى » أخرج فى مصر .

ومن أجل ذلك أصبحت القصة موضع بحث ، وكتب فى نقدها بعض مقالات كان معظمها مدحا وتقريظا . ومن أحسن ما كتب فى هذا الصدد مقالتان طويلتان للمازنى فى السياسة الأسبوعية بتاريخ ٢٧ ابريل و ٤ مايو من سنة ١٩٢٩ . وحدث أن كتب بعد ذلك كل من هيكل بك ومحمد عبد الله عنان سلسلة مقالات فى السياسة الأسبوعية فى أوائل عام ١٩٣٠ ذات فائدة كبيرة فيما يتعلق بنشأة القصة فى مصر .

يسائل هيكل بك عن أسباب ذلك الضعف وذلك الفقر الغريبين اللذين يمتاز بهما الأدب العربى الحديث فى القصة ، مع أن المصريين يمتازون بمقدرة طبيعية على سرد القصص . ولقد علل ذلك بعدة أسباب منها : فقدان المقدرة على طول الخيال ، والفرق بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، وكسل الكتاب المصريين . ولكن ليس

فى هذه الأسباب مايمكن اعتباره السبب الحقيقى وان بدا فى الثانى منها بعض الوجاهة . ويذكر هيكل بك بعض الأسباب الفرعية الأخرى ومنها (١) نسبة الأمية الهائلة فى مصر ، وهى تحول دون أى تقدير حقيقى من جهة ، وتكون سببا فى قلة العوض المالى من جهة أخرى (٢) عدم التشجيع من جانب الطبقات العالية والطبقات الغنية ، وربما كان السبب فى ذلك أن هؤلاء لم يجدوا تشجيعا من جانب المرأة وبهذه المناسبة يشير المؤلف الى أثر المرأة فى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر والى أهمية تشجيع المرأة للحركة الأدبية فى الأدب العربى القديم (٣) الحط من قيمة الأدباء فى مصر والتشهير بهم علنا من منافسيهم وممن هم أقل منهم منزلة (٤) انشغال الناس بالمسائل السياسية والاقتصادية وميل الكتاب الى الاهتمام بالناحية السياسية أكثر من اهتمامهم بالناحية الأدبية .

ويوافق عنان على تلك الأسباب فى الجملة ، غير أنه يقول أن ثانيها هو أكثرها خطرا ، فان الوسيلة الحقيقية الى نمو القصة فى مصر تنحصر فى مركز المرأة الاجتماعى ويشير عنان الى أن الدور الذى لعبته المرأة فى اغراض الشعر العربى القديم لم يكن له علاقة بالقصة ، لأن أساس القصة انما يوضع فى مجتمع تلعب فيه المرأة دورا خطيرا ويكون المجتمع متأثرا بنفوذها خصوصا فى رسم مستوى الخلق والسلوك . وكان من نتيجة فقدان هذا الأثر ضيق مجال الأدب العربى القديم والأدب الأوربى فى العصور الوسطى ونقصهما فى جمال الشعور والعواطف . ولا يزال هذا الضيق موجودا فى الأدب العربى الحديث لأن المستوى الاجتماعى لم يزل كما هو لم يتغير . وتعتبر قصة زينب احدى الشواذ التى تنهض دليلا على صحة القاعدة ، فان نجاحها انما يرجع الى تلك الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة فى الحياة الريفية . وعلى ذلك فان عنانا لايشارك هيكل بك فى تفاؤله ، ففى نظره أنه لايمكن أن تتقدم القصة المصرية مالم تتحسن تلك الظروف القائمة ، ولا يمكن أن تترجم أو تمثل العواطف والأخلاق السائدة فى الحياة الاجتماعية . ولا ينتظر ان يكون لها مستقبل فى التطور الأدبى الحديث مادامت الحياة الاسلامية محافظة على تقاليدها الموروثة . ومما قاله فى هذا الصدد «استطعنا أن نقطع بأن المجتمع الاسلامى لايمكن — متى بقى تطوره وتقدمه محصورين فى المبادىء الاسلامية الخالدة أو فى التقاليد التى كانت أثرا لهذه المبادىء — ان يظفر كتاب القصص العربى يوما بمادة واسعة أو غزيرة كالتى يقدمها المجتمع الغربى الى كتاب الغرب أو ان يغدو الأثر الذى يفسحه للمرأة ذات يوم وحيا للفن والجمال » .

ولقد أدت مقالة عنان الى رد من جانب هيكل بك يتعرض فيه الى الناحية « السيكلوجية » للموضوع ، وهى مقالة جديرة بأن تقرأ بمزيد الاهتمام . يقرر الكاتب أن الضعف الحقيقى فى القصة القصيرة والقصة الطويلة فى مصر انما يرجع الى عدم المقدرة على تفهم الحياة والى حاجتنا الى تربية العواطف ، فان العواطف النبيلة لايمكن أن تثمر فى حياة اجتماعية يقف فيها الشعور عند نقطة نقوم معها الأغراض الجسدية مقام أى عاطفة سامية من عواطف النفس الانسانية . وان أى فن لايكون فى الأصل قائما على حب الفنان لناحية من نواحى الحياة لا يمكن مطلقا أن يصل الى درجة الكمال ، وتطور غريزة الحب الى عاطفة انسانية سامية يحتاج الى تدريب طويل شاق وقد لايكفى لبلوغ ذلك جيل بل عدة أجيال . وحتى فضيلتا الأحسان والعطف يندر وجودهما فى مظهرهما الاجتماعى الراقى فى مصر . ولم يزل الحب أيضا قريبا من الغرائز الأولية ، ومن النادر أن يعثر المرء فى هذه الناحية على مثل من المثل العليا الجميلة . وأخيرا يتلمس الكاتب أسباب نقص التهذيب العاطفى فى انعدام وسائل التربية التى تقصد الى هذا الغرض فى المنزل ، كما يتلمسها فى طرق التعليم القديمة التى تعد أدخل فى باب الحرف منها فى باب الانسانية .

ولم يكن من السهل مرور هذه المناقشات دون أن تثير معارضة من جهات مختلفة وسنوضح أحد هذه الانتقادات الشهيرة عند الكلام على قصة المازنى « ابراهيم الكاتب » ولقد صدرت تلك المعارضة عن صفوف المثقفين . ومما قاله أحدهم فى هذا الصدد... ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة ؟ لقد سار الأدب العربى بدونها فى الماضى ولم ينقص ذلك من قدره ، وان التطلع الى إيجاد القصة فيه الآن ليعد مثلا جديدا من أمثلة تقليد الأوربيين تقليدا ضارا ينذر بتقوض دعائم الحياة الاجتماعية فى الشرق . ان القصة الغربية بما فيها من نقص وتزييف وعدم ملاءمة للتقاليد الاجتماعية فى الشرق قد أثرت تأثيرا هداما فى حياة مصر الاجتماعية . أفنسعى بعد ذلك وراء هذا الداء الوبيل ؟

« للبحث بقية »

زوروا مطبعة فاروق

٢٨ شارع المدابغ مصر